أبطال الإسلام

طارق بن زياد

(فاتح الأندلس)



المجد

تأليف: د/ على راشد   رسوم: ماهر عبد القادر

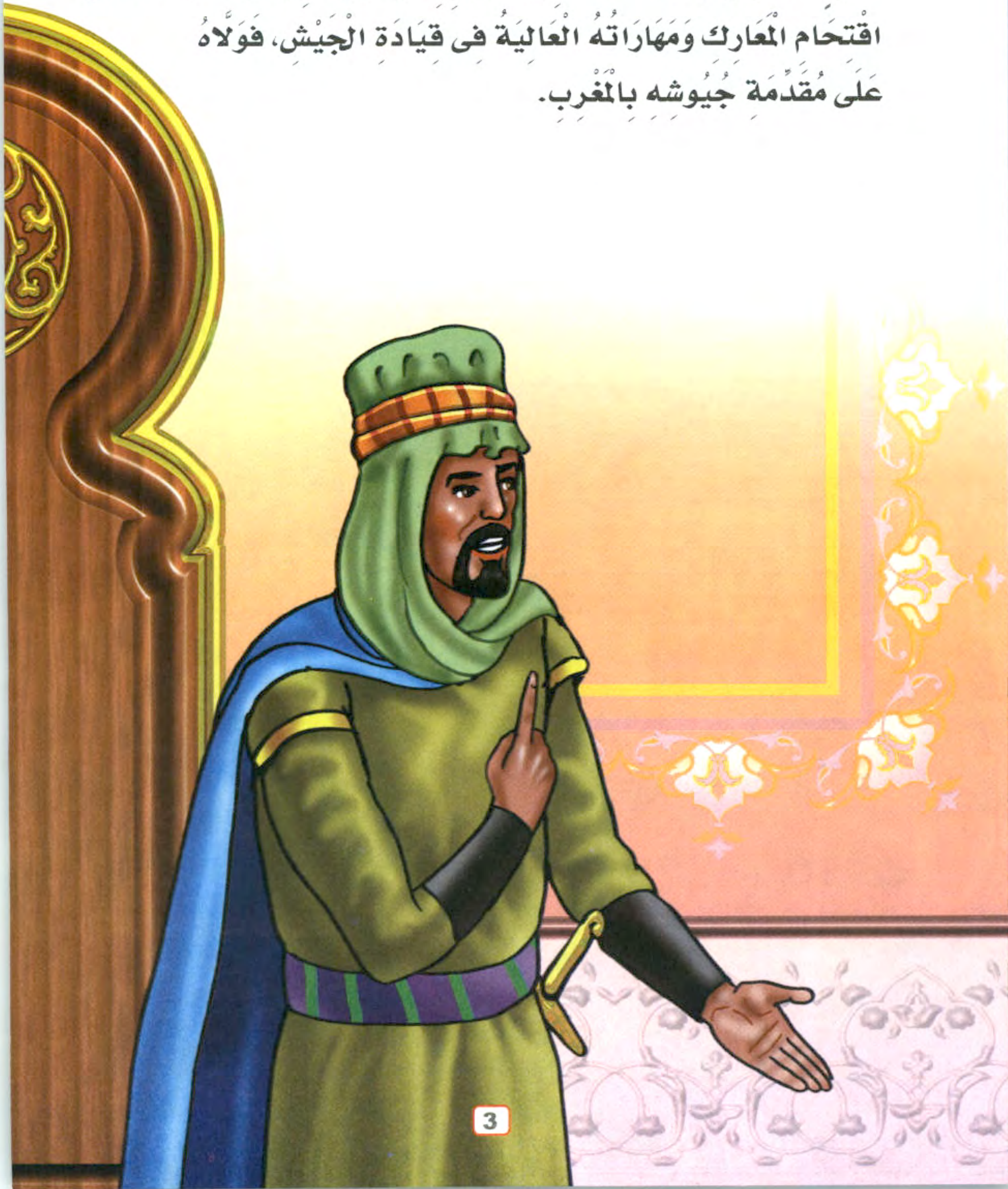
برقم إيداع 2013/7078
المجد للنشر والتوزيع 0106372799

لَمْ يَكُنِ الْبَطَلُ الْعَظِيمُ "طَارِقُ بْنُ زِيَاد" مِنْ أَصْلٍ عَرَبِىٍّ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنْ أَهَالِى الْبَرْبَرِ الَّذِينَ سَكَنُوا الْمَغْرِبَ الْعَرَبِىَّ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَرْبَرِ دَخَلُوا الإِسْلَامَ، وَمِنْهُمْ "عَبْدُ اللَّه" جَدُّ طَارِقٍ.

وُلِدَ "طَارِقٌ" فِى الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهِجْرِىِّ عَامَ ٥٠ هِجْرِيًّا، وَعِنْدَمَا أَصْبَحَ شَابًّا أَسْلَمَ عَلَى يَدِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ" أَمِيرِ إِفْرِيقِيَّةَ، وَأَصْبَحَ مِنْ أَشَدِّ رِجَالِهِ قُوَّةً وَإِخْلَاصًا.



وَعُيِّنَ "طَارِقٌ" أَمِيرًا عَلَى مَدِينَةِ "بَرْقَةَ"، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ طَوِيلًا فِى هَذَا الْمَنْصِبِ، إِذْ أَنَّهُ سُرْعَانَ مَا اخْتِيرَ قَائِدًا لِجَيْشِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ"، فَأَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا فِى حُرُوبِهِ، وَظَهَرَتْ لِمُوسَى قُدْرَتُهُ عَلَى اقْتِحَامِ الْمَعَارِكِ وَمَهَارَاتُهُ الْعَالِيَةُ فِى قِيَادَةِ الْجَيْشِ، فَوَلَّاهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ جُيُوشِهِ بِالْمَغْرِبِ.



وَهَكَذَا أُتِيحَتْ لِطَارِقٍ الْفُرْصَةُ أَنْ يَتَوَلَّى قِيَادَةَ جُيُوشِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ"، وَيَشْتَرِكَ مَعَهُ فِى فَتْحِ بَقِيَّةِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى حُصُونِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى حَتَّى الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِىِّ، وَأَكْمَلَ "طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ" الْفُتُوحَاتِ فِى إِفْرِيقِيَّةَ وَفَتَحَ الْمَدَائِنَ حَتَّى بَلَغَ مَدِينَةَ "الْحُسَيْمَةِ" الْمُهِمَّةَ، وَدَخَلَهَا، وَأَسْلَمَ أَهْلُهَا.



وَلَمْ يَمْضِ عَلَى وِلَايَةِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ" لِلْمَغْرِبِ عِدَّةُ أَعْوَامٍ حَتَّى خَضَعَ لَهُ الْمَغْرِبُ بِأَسْرِهِ، وَلَمْ تَسْتَعْصِ عَلَيْهِ سِوَى مَدِينَةِ "سَبْتَةَ" لِمَنَاعَتِهَا، وَشِدَّةِ تَحَصُّنِهَا، وَكَانَ يَتَوَلَّى إِمَارَتَهَا حَاكِمٌ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ يُعْرَفُ بِاسْمِ "يُلْيَانَ الْمَسِيحِيِّ".



وَتَمَّ تَعْيِينُ "طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ" وَالِيًا عَلَى مَدِينَةِ "طَنْجَةَ" مِنْ قِبَلِ الْقَائِدِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ"، وَتَرَكَ لَهُ جَيْشًا قِوَامُهُ تِسْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْبَرْبَرِ بِأَسْلِحَتِهِمْ.



وَعُدَدهمْ كَامِلَةً مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ يُعَلِّمُونَ الْبَرْبَرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَفَرَائِضَ الْإِسْلَامِ، وَعَادَ "مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ" إِلَى مَدِينَةِ الْقَيْرَوَانِ.



وَمَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ آثَرَ "طَارِقٌ" أَنْ يَكْسبَ صَدَاقَةَ عَدُوِّه "يُلْيَانَ"، وَأَخَذَ يُرَاسِلُهُ، وَفِى الْوَقْتِ نَفْسِه اسْتَطَاعَ "لوزريق" أَحَدُ قُوَّادِ الْجَيْشِ فِى الْقُوطِ (بِلَادِ الْأَنْدَلُس) أَنْ يَخْلَعَ الْمَلِكَ مِنْ مَنْصِبِه وَيُنَصِّبَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ، وَكَانَت الْفَتَاةُ الْجَمِيلَةُ ابْنَةُ "يُلْيَانَ" ضَيْفَةً عَلَى ابْنَةِ الْمَلِكِ الْمَخْلُوعِ، فَاعْتَدَى الْغَادِرُ "لوزريق" عَلَى الْفَتَاةِ الضَّيْفَةِ ابْنَةِ "يُلْيَانَ"، الْأَمْرُ الَّذِى أَثَارَ غَضَبَ "يُلْيَانَ".



فَذَهَبَ إلَى "طَارِق بْن زِيَاد" بِنَفْسه وَعَرَضَ عَلَيْه مُسَاعَدَتَهُ فِى الاسْتِيلاء عَلَى "الأنْدَلُس" وَلَمْ يَتَرَدَّدْ طَارِقٌ فِى الاتِّصَال بِقَائده "مُوسَى بْن نُصَيْر" بالْقَيْرَوَان يُعْلِمُهُ بِهَذه الأَخْبَار، وَبِنَاءً عَلَى ذَلكَ اتَّصَلَ "مُوسَى" بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَلِيفَة "الْوَلِيد بْن عَبْد الْمَلِك" يَطْلُبُ اسْتِشَارَتَهُ وَإذْنَهُ، فَنَصَحَهُ الْخَلِيفَةُ بِأَلَّا يَعْتَمِدَ عَلَى "يُلْيَان"، بَلْ عَلَيْه أَنْ يُرْسِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَسْتَكْشِفُ الأَمْرَ.

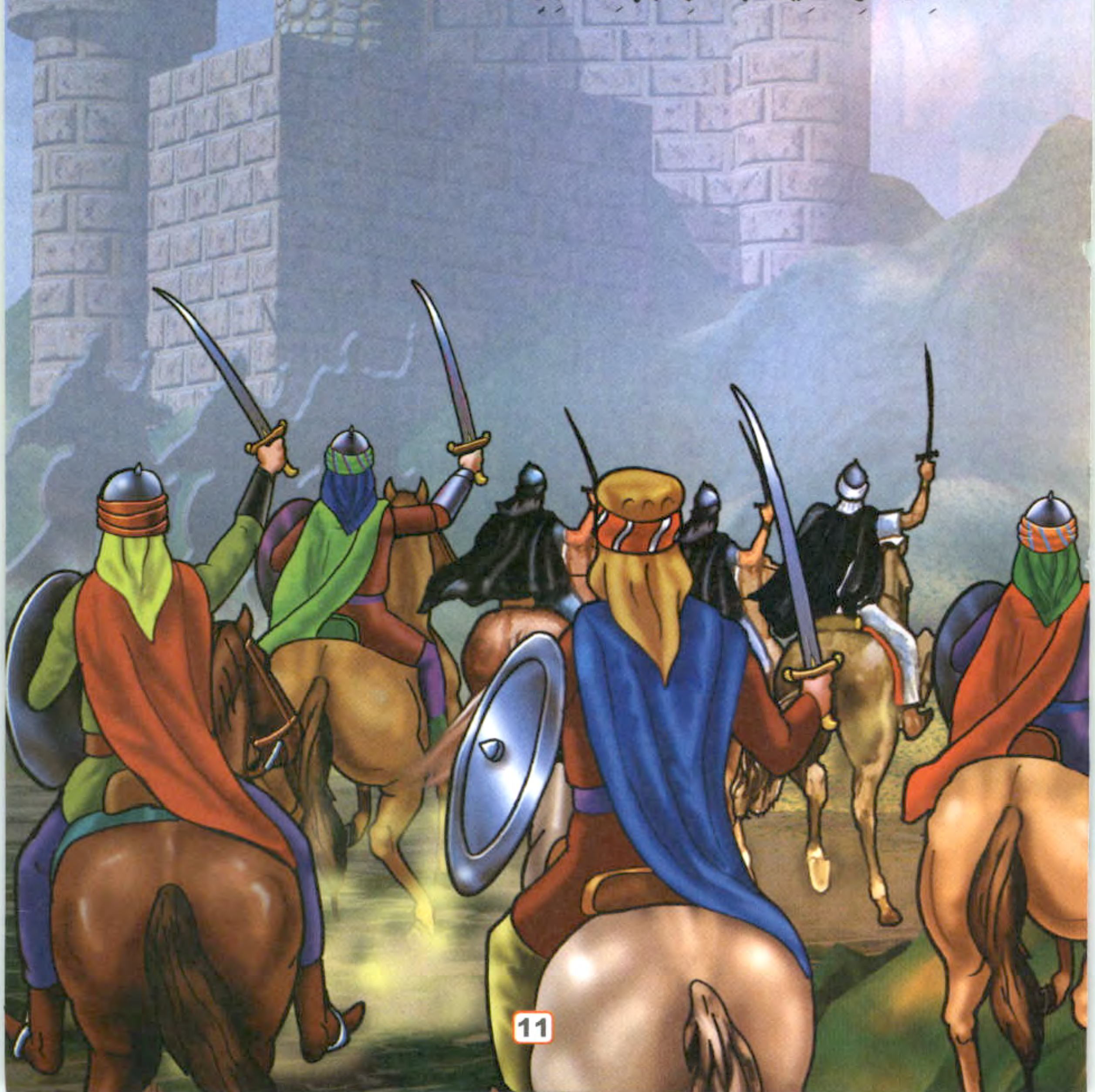


فَأُرْسلَتْ سَرِيَّةٌ قِوامُهَا خَمْسُمائَة مُقَاتل عَلَى رَأْسهِمْ قَائدٌ منَ الْبَرْبَر يُدْعَى "طَرِيف بْنَ مَالك" لاسْتكْشَاف أرْض الإسْبَان، وَقَدَّمَ "يُلْيَان" أرْبَعَ سُفُن أقَلَّتْ سَرِيَّةَ طَرِيف إلَى إسْبَانْيَا عَبْرَ الْبَحْر، وَنَزَلَتْ هُنَاك فى منْطَقَة (سُمِّيَتْ فيمَا بَعْدُ بجَزِيرَة طَرِيف).

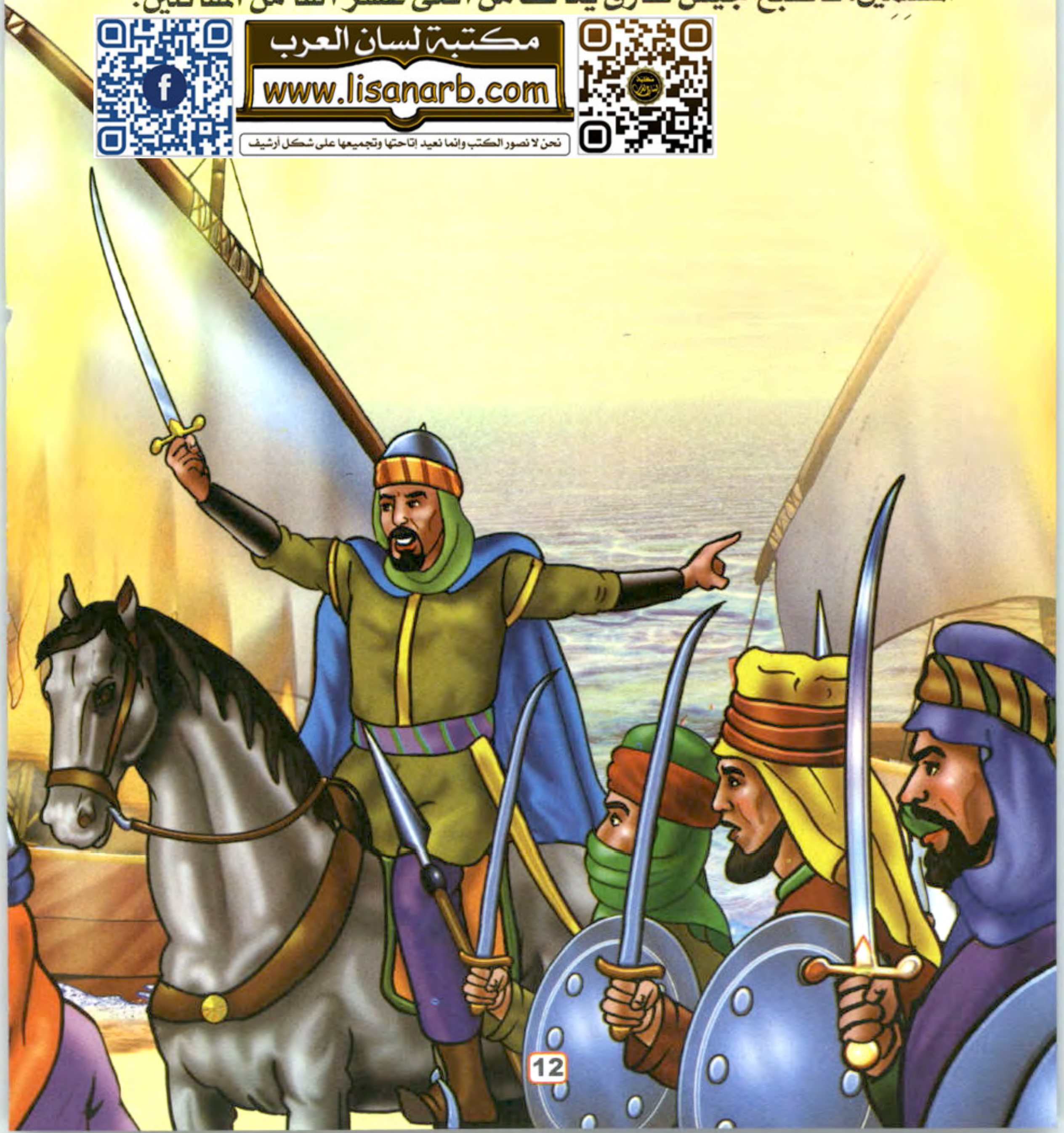
وَغَنمَتْ سَرِيَّةُ "طَرِيف" غَنَائمَ كَثيرَةً، وَعَادَتْ مَرَّةً أُخْرَى إلَى الْمَغْرِب، ليُقَدِّمَ طَرِيفُ بْنُ مَالك" تَقْرِيرًا عَنْ نَتَائج حَمْلَته إلَى الْقَائد "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ".



آنَسَ "مُوسَى" إلَى "يُلْيَانَ"، وَازْدَادَ إقْدَامًا عَلَى الْفُتُوحَاتِ وَالتَّوَسُّعَاتِ، فَاسْتَدْعَى "طَارِقَ بْنَ زِيَادٍ" وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُودَ جَيْشًا لِفَتْحِ الأَنْدَلُسِ، وَكَانَ عَدَدُ جُنُودِ هَذَا الْجَيْشِ سَبْعَةَ آلافٍ مِنَ الْبَرْبَرِ، وَثَلاثَمِائَةٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَأَبْحَرَتْ هَذِهِ الْحَمْلَةُ مِنْ "طَنْجَةَ" عَامَ ٩٢ هـ فِى أَرْبَعِ سُفُنٍ، وَظَلَّتْ هَذِهِ السُّفُنُ تَنْقُلُ جُنُودَ "طَارِقٍ" عَلَى دُفْعَاتٍ إلَى الْجَبَلِ - الَّذِى عُرِفَ فِيمَا بَعْدُ بِـ جَبَلِ طَارِقٍ - حَتَّى كَمُلَ نَقْلُهُمْ.



وَقعَ خَبَرُ وُصُولِ جَيْشِ الْمُسْلمينَ إلَى السَّاحلِ الْجَنُوبِيِّ للأَنْدَلُس عَلَى "لوزريق" وُقُوعَ الصَّاعقَةِ، فَجَهَّزَ جَيْشًا قَوَامُهُ مائَةُ أَلْف مُقَاتل لمُحَارَبَة "طَارقَ بْنِ زيَاد" وَجَيْشه، فَأَرْسَلَ "طَارقٌ" إلَى "مُوسَى بْنِ نُصَيْر" يَطْلُبُ منْهُ الْمَدَدَ فَأَرْسَلَ لَهُ مَدَدًا قُدِّرَ بـ خَمْسَةِ آلاف منَ الْمُسْلمينَ، فَأَصْبَحَ جَيْشُ طَارق يَتَأَلَّفُ من اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفًا منَ الْمُقَاتلينَ.



وَقَبْلَ بَدْءِ مَعْرَكَة "وَادى لكة" بَيْنَ جَيْش "لوزريق" الْقُوطىِّ، وَجَيْش الْمُسْلمينَ، أَمَرَ "طَارقُ بْنُ زيَاد" بحَرْق السُّفُن حَتَّى لَا يُفَكِّرَ أَحَدٌ منْ جُنُوده فى الْهَرَب وَالْعَوْدَة إلَى السَّاحلِ الْأَفْرِيقىِّ بهَا، ثُمَّ خَطَبَ فى جُنُوده خُطْبَةً كَانَ مَطْلَعُهَا:

"أَيُّهَا الْجُنُودُ أَيْنَ الْمَفَرُّ؟ الْبَحْرُ منْ وَرَائكُمْ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللّه إلَّا الصِّدْقُ وَالصَّبْرُ، وَاعْلَمُوا أَنَّنى أَوَّلُ الْمُقَاتلينَ، وَأَنِّى عنْدَ مُلْتَقَى الْجَمْعَيْنِ حَاملٌ نَفْسى عَلَى طَاغيَة الْقَوْم "لوزريق" لأُقَاتلَهُ إنْ شَاءَ اللّه، فَإنْ قَتَلْتُهُ بِالْفِعْلِ فَاعْلَمُوا أَنَّ جُنُودَهُ منْ بَعْده سَيُهْزَمُونَ".



وَالْتَقَى الْجَيْشَان، وَدَامَت الْمَعْرَكَةُ ثَمَانِيَةَ أَيَّام، وَانْتَصَرَ جَيْشُ الْمُسْلمِينَ بِقيَادَةِ الْبَطَلِ "طَارِق بْن زِيَاد" انْتِصَارًا سَاحقًا عَلَى جَيْش "لوزريق" الَّذِى اخْتَفَى، وَقِيلَ إِنَّهُ منَ الأَرْجَح أَنَّهُ قَدْ مَاتَ.

وَكَانَتْ تَعْلِيمَاتُ "مُوسَى بْن نُصَيْر" أَلَّا تَتَوَغَّلَ قُوَّاتُ الْمُسْلمِينَ فِى شِبْه جَزِيرَة الأَنْدَلُس، وَذَلكَ خَوْفًا عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّ "طَارقًا" اضْطُرَّ إِلَى دُخُولِ مَدِينَةِ "إِشْبِيلِيَّةَ"، وَكَذَلِكَ سَقَطَتْ عِدَّةُ مُدُنٍ فِى يَدِهِ أَيْضًا.



وَعِنْدَمَا الْتَقَى "طَارِقُ بْنُ زِيَادٍ" بِقَائِدِهِ "مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ" فِى مَدِينَةِ طُلَيْطِلَةَ، عَاتَبَهُ "مُوسَى" بِرِفْقٍ عَلَى تَسَرُّعِهِ فِى اقْتِحَامِ مُدُنِ الأَنْدَلُسِ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَرَاحَ الْقَائِدَانِ قَلِيلًا فِى طُلَيْطِلَةَ، عَاوَدَا الْفُتُوحَاتِ وَالتَّوَسُّعَاتِ مَرَّةً أُخْرَى، وَزَحَفَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مُدُنِ الشَّمَالِ الشَّرْقِىِّ لِلأَنْدَلُسِ، فَاخْتَرَقَا وِلَايَةَ أَرْجُو وَمَدِينَةَ بَرْشَلُونَةَ وَحِصْنَ لُورُونَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَبَيْنَمَا هُمَا عَلَى هَذَا الْحَالِ مِنَ التَّوَسُّعِ وَالتَّوَغُّلِ فِى بِلَادِ الأَنْدَلُسِ، وَصَلَتْهُمَا رِسَالَةٌ مِنَ الْخَلِيفَةِ الأُمَوِىِّ "الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ"، يَطْلُبُ عَوْدَتَهُمَا إِلَى دِمَشْقَ، فَعَادَا بِالْفِعْلِ إِلَى دِمَشْقَ تَارِكِينَ الْمُسْلِمِينَ فِى الأَنْدَلُسِ تَحْتَ قِيَادَةِ "عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ".



وَتَوَجَّهَ الْبَطَلُ "طَارِقُ بْنُ زِيَاد" بِصُحْبَةِ الْقَائِد "مُوسَى بْن نُصَيْر" وَمَعَهُمَا أَرْبَعُمِائَة مِنْ أَفْرَاد الأُسْرَة الْمَالِكَة، وَجُمُوعٌ مِنَ الأَسْرَى وَالْعَبِيد، وَكَمِّيَّةٌ مِنَ النَّفَائس وَالْمُجَوْهَرَات، وَقَد انْقَطَعَتْ أَخْبَارُ الْقَائِد "طَارِق بْن زِيَاد" إِثْرَ وُصُوله إِلَى الشَّام مَعَ "مُوسَى بْن نُصَيْر"، وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُ تَحْدِيد إِقَامَة "طَارِق" وَأُسْرَته فى دِمَشْقَ الْخَوْفَ مِنْ نُفُوذه عَلَى الدَّوْلَة الأُمَوِيَّة، وَمَاتَ الْبَطَلُ عَامَ ١٠٠ هـ فى دِمَشْقَ وَهُوَ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمْر خَمْسِينَ عَامًا.

